فلسفة «حدس الاتصال» وفكرة «الزمن» وانعكاساتهما في العمارة العربية «الإسلامية»

د. وليد أحمد السيد *

عمارة هندية

■ ثمة قدر لا يستهان به من الدراسات التي أعملت العقل والمنطق في مفهوم وماهية «الزمن» لما له من ارتباط وثيق الصلة بالثالوث (الإنسان والمكان والزمان) بحيث غدا موضوعا محوريا للفلاسفة، وبالذات للمؤرخين والمنظرين في التاريخ البشري. وبات تقسيم الزمن، وبالتالي متعلقات الوجود والكينونة الإنسانية، إلى ثلاثة أقسام: ماض ذهب وانقضى لا يعود مطلقا، وحاضر يموت كل لحظة متحولا إلى ماض، ومستقبل يتحول على الدوام إلى حاضر فماض. وهذا النهر الدافق من «الجزيئات الزمنية»، من لحظات وثوان إلى حقب، جرى منذ الأزل بهذا الصورة وهذه الكيفية والاتجاه من الماضي للمستقبل ولم تعرف البشرية أنه جرى بغير هذا الاتجاه.

الفلسفة الحديثة تميزت بالجرأة وكانت ثورة على الفلسفة الكلاسيكية التي قامت على مفهوم «حدس الاتصال» (Induction). فمع مطلع القرن التاسع عشر بزغت ظاهرة بين العلماء والفلاسفة والمنطقيين، والتي كرسها (Karl Popper) حين طرح مداخلته الفلسفية الشهيرة التي نقضت حدس الاتصال، والتي تمثلها فكرة أن شروق الشمس كل يوم، تبعا لمنطق «حدس الاتصال»، لا ينفي حقيقة أنها قد لا تشرق يوما ما، مما يترك مجالا للشك العلمي والمساءلة في إمكانية حدوث العكس. فقد أعلن (Popper) في مقدمة كتابه الشهير (Objective Knowledge: An Evolutionary Approach) والصادر عن جامعة أكسفورد، حل معضلة «حدس الاتصال» التي حيرت الفلاسفة طويلا. ففي السطر الأول من الفصل الأول من كتابه يكتب: «أعتقد بأنني حللت معضلة فلسفية محورية؛ هي مشكلة حدس الاتصال»! ليشرع من خلال فصول الكتاب في برهنة أطروحته الفلسفية برصانة ومنطقية أسست بشكل غير مسبوق لجدلية أساسية في المنطق والفلسفة بتعريفه لما عرف بعلم الفلسفة بـ«المساءلة والتمحيص والنقض» (conjecture and refutation)، والتي تطال جميع مسائل العقل البشري. أهمية أطروحة (بوبر) تكمن في أنها وللمرة الأولى في التاريخ الإنساني وضعت ما كان يعد بمثابة «القانون» على طاولة النقد والنقض، بجانب «الفرضية» و«النظرية» سواء بسواء. «فالقانون» كان يعلو تماما على النقض في البحث العلمي الكلاسيكي، لكن فلسفة (بوبر) في نقض «حدس الاتصال» فتحت الباب على مصراعيه للتأسيس لنهضة الغرب في البحث العلمي الحديث وأكسبته قفزات نوعية. فأهمية «المعرفة الموضوعية» التي أسس لها «بوبر» برصانة، تكمن في أنها قدمت محركات الأطر التي تحرك فيها البحث العلمي الغربي بما لم يعرف حدودا منذئذ. وبمقابل هذا التطور العلمي المنهجي في تبني منهجية «الدحض والنقض»، أو (conjecture and refutation)، نجد البحث العلمي والأكاديمي العربي ما يزال معتكفا في خدره راقدا في سبات عميق يحلم بدفء مجموعات من الدراسات الكلاسيكية التي لا تقبل النقد أو المساءلة. فهو، وللأسف، يتحرك في إطار مجموعات من «المقدسات» والخطوط الحمراء، والدراسات «العتيقة» التي لا تجوز إعادة البحث فيها أو مساءلتها، مما فرض قيودا و«تحجرا» فوق تقوقع ابتدائي أصلا. ومن هذه الدراسات، مثلا، تلك التي تدور في فلك ما سمي بالمدينة «الإسلامية» وارتباطاتها بالشريعة، مما يعتبر مجرد التلميح بنقدها كمن يهاجم الشريعة ذاتها! ما يعنينا هنا هو التأكيد على أن إعادة دراسة ونقد ما «يظن» أنه من المسلّمات، كان ويظل هو الطريق الأوحد تجاه التطور في البحث العلمي الغربي، من خلال وضع «النظريات» الأكاديمية المختلفة على طاولة البحث والدرس والنقاش. فليست هناك مسلّمة في البحث العلمي بالمنظور الغربي الذي يتقدم العالم النامي بحقب «ضوئية». فبقدر ما تعمل العقول في مساءلة الواقع بقدر ما تتفتح آفاق لا حدود لها من العلم والمعرفة مما يتخطى الجمود والتقوقع الفكري، وهو للأسف ما يتمتع به العقل العربي الأكاديمي والبحثي وبامتياز اليوم.

وانطلاقا من تلك الأطروحة المنهجية ونظرا لضيق المساحة فسنعرض هنا فكرتين أساسيتين على علاقة بحدس الاتصال التقليدي وأطروحات «نوعية» في التفكير المنهجي «باللامفكر فيه»: الأولى تتطرق لفلسفة مفهوم الزمن، كأحد أبرز المعضلات الفلسفية وتطبيقات «حدس الاتصال» الكلاسيكية ومتعلقات «المعرفة الموضوعية». والثانية في توضيح فكرة الزمن وتطبيقاتها في العمارة العربية الإسلامية. وهنا يجدر التمييز ابتداء بين مفهوم الزمن «كمعطى جامد» للدلالة على الحقب أو العصور البشرية وبين الزمن «كدلالة حركية» لنهر جار من الجزيئات الزمنية الدافقة. فالمفهوم الأول وصفته الدراسات الإنسانية والتاريخية، أما الثاني فهو محل الإشكالية والذي وقفت عنده عقول المفكرين والفلاسفة، وهو الذي يهمنا بحثه هنا. فما هو الزمن، بمفهومه الحركي؟

فكرة الزمن فلسفيا تطرحها مقاربة أساسية تعتمد كلا من المنطق والعقل والنقل. فمعروف بدهيا، وبحسب المناطقة ومنهم إخوان الصفا، أن الماهيات في الكون تقسم الى نوعين: حسية ولا حسية. أما الحسية فتقسم لقسمين: «حسي محض»، يتحدد ويعرف بدلالات مادية فقط، ومثاله الجماد. و«حسي خليط» من المادة والروح، ومثاله المخلوقات الحية. وأما الماهيات «اللا حسية» فلا يمكن رصدها إنما يمكن تبين آثارها، وغالبا يتحدد بدلالة الحسيات، ومثالها ضوء الشمس أو الظل أو الحيز الفراغي، وفضلا عن ذلك هناك ما يعرفه العلم الحديث «بالمادة السوداء» أو (Dark Matter) والتي تملأ الفراغ الهائل بين المجرات والكواكب ويزخر بها الكون ولم يجد العلم بعد وسيلة لرصدها أو تبيانها. ويتبع هذه الفصيلة ماهيات تتحدد بدلالة «أفعال» الحسيات وليس بالحسيات ذاتها، ومثالها البيئات الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية – التي تتحدد بـ«أفعال الحسيات الخليطة» – البشر، أو ما يتحدد بـ«أفعال الحسيات المحضة»، ومثالها «فعل» دوران الأرض (حسي محض) حول الشمس وحول نفسها، مما ينتج عنه «الزمن».

والتساؤل المنطقي الذي يطرح نفسه هو: ماذا يحصل لو توقفت الكواكب عن الدوران؟ هل يتوقف الزمن أم يموت أم ما الذي يحصل بالضبط؟ وهل الكواكب هي فعلا «علامة» دالة على الزمن أم أن الزمن هو كينونة مستقلة بذاتها تكشفها الكواكب بدورانها ولا تتحكم بأصل كينونتها البتة؟

للبحث عن الإجابة نجد أطروحة في المنطق، من مزيج من العقل والنقل، تعرّف الزمن كماهية مستقلة عما حولها، لكن «تدل» عليها أفعال الكواكب ودورانها فقط ولكنها «لا تشكله» مطلقا (ولا ينعدم من دونها). تماما كما تدل الشمس على الظل، فالظل كائن مستقل موجود بالشمس وضوئها وبغيرها، ويدل عليه قول الحق تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى 1 رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46)» (الفرقان). وانظر إلى التعبير القرآني الدقيق (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا)، فالشمس «تدل» عليه ولا «توجده»، مما يوحي بأنه موجود فعلا لكنه غائب عن العيان. وضمن هذا الإطار يناقش فيلسوف ومنظر «مورفولوجيا الحيز الفراغي الحضري» البروفيسور (Bill Hillier) بجامعة لندن، وهو كان مشرف كاتب هذه السطور، أن الفراغ أو الحيز الفراغي هو موجود بالجدران المحيطة ومن دونها. وهذه الفرضية قامت عليها نظرية شهيرة في التخطيط والتصميم المعماري والحضري هي نظرية (Space Syntax) والتي دحضت المقولات السابقة المغلوطة بأن الحيز الفراغي اللامحسوس «مرتبط وجوده» بما حوله للدلالة عليه، فإذا اختفت هذه الماديات من حوله انعدم وجوده!! وفي الحقيقة تذهب هذه النظرية لربط الحيز الفراغي باللاحسيات من البيئات الاجتماعية والثقافية والسياسية أكثر من ربطه بالمحسوسات من المكان والجدران. ويناقش الفيلسوف (Hillier) هذه الأطروحة برصانة حيث يجادل ساخرا ممن يزعمون، ومنهم الفيلسوف الإنكليزي (Roger Scruton)، أن الفراغ متحدد بما حوله من الجدران فإذا زالت الجدران «ساح» الفراغ وانساب وغاب وانعدم!! ومن هنا ينشئ (Hillier) نظريته في هذا المضمار على عقيدة أن الفراغ هو مستقل بذاته ككينونة، ويمكن الدلالة عليه باللاحسيات وبالذات العوامل الاجتماعية مما يعطيه صبغة وارتباطا بالبيئة الاجتماعية أكثر مما تفعل الحسيات والحوائط والجدران. بل إن الأخيرة إنما هي مؤشرات ودلالات لقراءة العلاقات الفراغية وربطها بالمؤثرات الاجتماعية والثقافية التي أفرزتها، وقراءة العقلية التي كانت وراءها، وليست بحال محددا لها، فهي وعاء ومؤشر لقراءة ورصد الآلية وليس لتحديد الكم الناتج فقط.

وبالرغم من هذه الاستقلالية «النسبية» للزمن، بحسب هذه الأطروحة، إلا أنه يمكن ربطه ورصده أو رصد آثاره بالمحسوسات، وبالمنطق فما هو مرتبط، ولو نسبيا، بالمحسوس الفاني فلا بد أن يفنى بالضرورة يوما. ومن هنا يمكن النظر للدفق الزمني كل لحظة على أنه (موت وفناء للثواني). وانطلاقا من هذا المنطق يمكن النظر للزمن على أن وظيفته مرجعية لجميع ما حوله ممن في عالمه فقط. ولذلك نحن كثيرا ما نخطئ إذ نعمد إلى مد حدود «الزمن» الى أبعد من حدود العالم الذي تشكل فيه والذي خلق لأجله ولغاية واحدة من أجلها خلقت الحسيات التي تشكله وهي الكواكب ودورانها وذلك (لتعلموا عدد السنين والحساب)، أي أن الزمن ما هو إلا «مسطرة» و«آلة» لقياس «الدفق النهري الجاري للثواني والدقائق والساعات». كذلك نخطئ أيضا بنسبة التقادم أو الفناء للزمن ذاته. فالزمن «كمسطرة قياسية» ليس مسؤولا عن شيء إنما هو وسيلة وأداة مرجعية للاستناد اليها فيما يخص «الدفق» الوقتي الذي صمم ليجري من الماضي عبر الحاضر الى المستقبل. تماما كمن يخطئ بنسبة ارتفاع المد بأمواج النهر الى المقياس النهري المستعمل لذلك. أما التقادم والهرم والهلاك فمرده البنية التكوينية البيولوجية للأشياء في «عالم الخلق»، أو عالم الناسوت خاصتنا، والتي تجعلها تتآكل مع مرور الزمن إما بفعل عوامل التعرية، وإما – وكما في حالة الإنسان وكما أثبت العلم الحديث، بسبب مرور الدم في الأوردة والشرايين على مدى السنين مما يجعلها عرضة للتآكل تماما مثل المواسير بالمبنى المعماري مما يكسب البشرة طابع التقادم والهرم. ولذلك فقد عاب القرآن الكريم على الجاحدين الكافرين نظرتهم للحياة والموت في الآية الكريمة (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ) الجاثية الآية (24). فالدهر ليس هو «الفاعل» في الموت، بظنهم وزعمهم، بل هو مقياس جريان الدفق النهري للثواني وليس سببا أو مسببا في معادلة الموت والحياة البتة.

ومن هنا فالزمن في عالمنا يتشكل بإحداثيات حسية هي كواكب ونجوم وأفعال –هي دورانها حول بعضها، وسرعة الدوران هذه تحدد «وحدات الزمن» القياسية، وهي الغاية من خلق الزمن. فدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بسرعة معينة «يخلق» الزمن الأرضي. بيد أن «الزمن» كأداة قياسية إنما هو متفاوت التدريج، إذ هو «أزمنة» – وإن شئت فقل «مساطر قياسية» متعددة، تماما كما أن «المكان» هو «أمكنة». فالزمن على الأرض ليس هو ذاته على عطارد أو المشتري أو الزهرة الذي يدور حول نفسه ببطء وتكاسل شديد إذ يستغرق 243 يوما أرضيا ليكمل دورة واحدة حول نفسه، وهو أطول من الوقت الذي يستغرقه للدوران حول الشمس، بمعنى أن اليوم على الزهرة أطول من السنة. وأقرب هذه الكواكب لزمننا الأرضي هو المريخ إذ أن اليوم المريخي هو 24 ساعة و36 دقيقة أرضية وله فصول أربعة مشابهة لفصولنا الأرضية بسبب درجة ميلان محوره عن الشمس المشابهة لدرجة ميلان أرضنا. وبما أن الأيام على كواكبنا المحدودة التي تنتمي لشمسنا ليست واحدة وهي التي تحدد الزمن في كل مكان منها بدرجة أساسية فمعنى ذلك أن الزمن وفكرته الفلسفية معتمدة اعتمادا كليا على هذه الكواكب الفانية يوما ما، وما يعتمد على ما هو فان فلا بد أن يكون فانيا أيضا بالمنطق. بمعنى أن «الزمن» الأرضي الذي نعرفه هو مخلوق يموت كل لحظة، أفلا تموت الثواني على الدوام منذ زمن آدم عليه السلام؟ ومن هنا نستحضر الحديث القدسي الذي معناه (فإني كتبت الموت على كل ما هو تحت العرش)، والزمن هو مما تحت العرش. ومن هنا يمكن فهم حقيقة التمييز بين «الزمن» الفاني و«الخلود» الباقي، فكيف لما هو فان أن يطبق قوانينه على ما هو خالد. وبكلمات أخرى كيف لهذا الزمن الذي تحدده قوانين عالمنا الفاني أن يحيط بخالقه الباقي سبحانه؟؟؟

ولكن إذا كان الزمن يفنى ويموت، فما هو «اللازمن»، أو بمعنى آخر: ما هو الخلود إذن؟ تبرز فرضية في هذا الإطار تتلخص بتعريف «الزمن» كفرد في عائلة، تماما كما أن الكون كله مبني على وجود عائلات لكل الكائنات، ومثالها عائلة المكان (الماء والهواء والتراب والنار)، فبالمنطق ما الذي يمنع من وجود «عائلة» واسعة ينتمي اليها الزمن تبدأ من الزمن الذي نعرفه (ولا نعرف كنهه) وتنتهي بصورة متطورة للزمن أو اللازمن تدعى «الخلود»؟ ما الذي يمنع من وجود صور فريدة للزمن متطورة بطبيعتها بحيث لا تكون مشابهة لطبيعة زماننا المحدودة بعناصر حسية فانية؟ فالزمن هو مقياس لنا لمحدوديتنا إذ ندرك الأمور المعدودة، ولا نفهم غير المعدود كالصفر واللانهاية (الخلود).

ولذلك فمن أبرز خصائص زمننا الذي نعرفه أنه «نسبي» يطول بفراق حبيب ويقصر بلحظات سعادة. ومن ذلك أن هذا الزمن الدنيوي للحقب الإنسانية يؤول الى التناقص يوم القيامة، «قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا 1 لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (114) – (سورة المؤمنون). فكل الموتى، من أول ميت من عهد آدم قبل ملايين السنين إلى قيام الساعة، يظن أن الزمن في الدنيا قد تقلص الى يوم أو أقل من يوم؟؟ معنى ذلك أن هذه المسطرة القياسية ليست حقيقية بمعنى أنها نسبية مؤقتة لهذا العالم وتعتمد قراءتها على مجموعة مقياسية غير موضوعية كالحالة النفسية التي تطول الزمن أو تقصره الى غير ذلك أو يتناسب عكسيا مع السرعة ويقترب من الصفر ويتجمد إذا اقتربنا من سرعة الضوء كما ذهب اليه آينشتين في نظرية النسبية. وهذا كله يدعم الفرضية بأن الزمن في عالمنا محدود لعالمنا فقط ولا يمتد لأبعد من هذا العالم.

والتساؤل الذي يعنينا بعد كل هذه المقاربات الأساسية هو: كيف نظر المعمار للزمن وما هو تأثير هذه النظرة في العمارة كآلية وكناتج؟ الإجابة هي أن غالب الدراسات والنظرات للزمن انطلقت من مفهوم الزمن «كفترات وحقب جامدة»، لا كمعطى قياسي حركي ومستقل يرمي بظلاله «كنهر زمني» ممتد يجري من الماضي باتجاه الحاضر والمستقبل.

ونظرت للعمارة «كطرز معمارية» تميزت كل منها عن غيرها بالتقادم وبما تحمله كل فترة دون الأخرى. أما النظرة للزمن «كمعطى حركي» فندرت الدراسات التي أولتها ما تستحق من الاهتمام، بيد أن المعمار المسلم قد التفت اليها لماما إذ أدرك علاقة الزمن «كمسطرة قياسية» بما حولها من «أدوات حسية مصاحبة» تصنعها فدخلت هذه الأدوات جميعها «وكآلية» لصنع الزمن الأرضي في عمارته. فقد التفت لأهمية الشمس– كالاغريق والرومان والفراعنة والهند من قبل– في تحديد الزمن وبرع المعمار المسلم بخاصة في إدراك هذه العلاقة من الظل فابتكر «المزولة» الشمسية التي تحسب ساعات النهار بدلالة إسقاط حركة الشمس والظل من جسم عمودي على سطح مقعر. وليس هذا فحسب بل شكلت حركة الكواكب والنجوم نقاطا مرجعية مهمة في «الحدث» المعمارية كآلية إفراز نواتج اجتماعية وأنتجت مآثر عمرانية كملوية سامراء وجامع ابن طولون بالإضافة إلى دورها في التخطيط الحضري في بعض عناصر عمرانية في المدينة العربية، وللحديث بقية في مساحات قادمة.

---

* أكاديمي وباحث في فلسفة العمارة – لندن
sayedw03@yahoo.co.uk

حينما يبدأ الشعر تبدأ الحياة: الملتقى الإيبيرو مغربي يحتفل بالقصيدة

أصيلة ـ «القدس العربي»

من عماد الورداني

هو العبور إلى أصيلة يولد الحلم، هناك في مكان اسمه مركز الحسن الثاني للملتقيات الدولية اجتمع شعراء الضفتين الإيبيرية والمغربية فيما يشبه تواطؤا سافرا من أجل الاحتفاء بالقصيدة وتكسير حدودها، هناك مرت ثلاثة أيام تلاقحت فيها الأصوات وأعلنت تمردها على الكائن ورحلت إلى أقاصي بعيدة مدشنة حلما مشتركا وهو تكسير الحدود وتوحيد الرؤى بواسطة كلمة اسمها الشعر، وحده الشعر جعل البرتغاليين والمغاربة والإسبان يعيشون حلم القصيدة في صباحات –9–8–7 أيار (مايو) ومساءاته، استمعنا واستمتعنا جميعا، رحلنا حيث لا ندري، كانت الأصوات تمنح دفأها للعابرين والباحثين عن حلم واسع، كان لا بد من هذا التواطؤ السافر حتى تتحقق القصيدة.

هكذا جاءت دعوة جمعية ملتقى الشعر الإيبيرومغربي لتفتح حقولا جديدة منسية، مراهنة على الحاضر والمستقبل كما جاء على لسان رئيسها الشاعر والمترجم مزوار الإدريسي باعتبار الملتقى هو فرصة للبحث عن الكلمة الشعرية الجديدة والمراهنة على الحاضر والمستقبل ونوه بمجهودات الداعمين لإنجاح هذا اللقاء، ثم أعطى الكلمة لمحمد بنعيسى أمين عام منتدى أصيلة الذي أكد على رمزية اللقاء بين شعراء من دول ثلاث كعربون على ضرورة المضي في نسج ثقافة تشاركية قوامها تلاقح الشعوب عبر وسيط اسمه الشعر، وتطلع إلى ضرورة توسيع هذا اللقاء ليشمل الشعراء العرب وشعراء أمريكا اللاتينية وكل الحساسيات التي ما فتئت تضرب بعيدا في المتخيل الإنساني مستفردة منه مادتها، فالإبداع وحده يمكنه أن يلغي الحدود. ونوهت كلمة وزارة الثقافة أحد الشركاء بهذه التجربة وأعلنت دعمها اللامشروط لهذه المبادرة واستعدادها الكلي لتطويرها وجعلها تقليدا سنويا، بينما ركز مدير معهد سيرفانطيس بطنجة على أواصر القرابة التاريخية القائمة بين المغرب وإسبانيا. أما كلمة رئيس كوديناف بالمغرب المترجم والباحث إدريس الجبروني فأكد على سعادته الكبرى بتحقق هذا اللقاء وأكد أن طموح كوديناف هو الحضور في المجال الثقافي موازاة مع الحضور في المجال الاجتماعي. مدير الجلسة الشاعر والمترجم خالد الريسوني ترجم بحرفية عالية كلمات المتدخلين.

هنا توقف صوت الداعمين لولادة حلم شعري، وبدأ صوت آخر هو صوت الشعر. رئيس اللجنة الشاعر عبد اللطيف شهبون أشاد بأصيلة بوصفها فضاء ثقافيا مفتوحا، وعبر عن حبه الكبير لهذه المدينة الأطلسية التي ما فتئت تجذب عابريها إلى اكتشاف أسرارها. ثم أعطى الكلمة للشعراء، فأنشد هؤلاء على حد تعبيره قصائدهم: فرناندو بينطو دو أمرال، ماريا أندرسين، عبد الكريم الطبال، غسطاو كروث..ارتفع صوت الشعراء باللغات الثلاث، وعبر نفس اللغات ترجم الشعراء القصائد.

وحده الشعر يلغي الحدود:

في اليوم الموالي اجتمع الشعراء صباحا للبحث عن سبل لإلغاء الحدود، وهي الجلسة التي أدارها الشاعر والباحث مصطفى الورياغلي الذي أعطى الكلمة للشاعر المغربي محمد الأشعري حيث ذهب إلى أن الحدود لا تقف عند اللغة أو الأمكنة أو الأعراف، وإنما في التجارب والإغراء المتبادل، هي حدود المسافات التي تستدرجنا، حدود تكمن ماهيتها في الصورة، الصمت، الغواية، غير أن هذه الحدود هي نفسها متغيرة ومتحولة بتحول ظروف إنتاجها، مشيرا إلى دور الترجمة في إنشاء حدود شعرية جديدة، كما حدث للشاعر العربي حينما تفاعل مع قصائد لوركا وتمثل قيمها الجمالية شعريا، فحينما نبدع، نبدع ونحن نتمثل شعرية الآخر. أما كلمة الشاعرة الإسبانية كونتشا غرثيا فقد ذهبت في مداخلتها الى أن الكلمة بدون حدود، والذي يقف في الحدود لا يعيش، لهذا فالشاعر ينتقل من حدود إلى أخرى دونما الاحتكام إلى نظام جاهز، لهذا ما فتئت الشاعرة تستضيف شعراء من حساسيات مختلفة في حجرتها الشعرية ببرشلونة. أما الشاعر والمترجم البرتغالي غاسطاو كروث غارسيا، فرأى أن الشعرية هي بحث وتساؤل وافتراض، وهو التساؤل الذي قاد الشاعر إلى حقول شاسعة جعلته يعيش تحولات كثيرة، تحولات متمردة على النمطي والمقدس والمطلق، ملغية كل ما يمكن أن يجعل للشعر أفقا جاهزا يحد من رؤيته. وفي مداخلة الشاعر المغربي الكبير عبد الكريم الطبال فضل أن يكتب بلغة شفافة مبدعة، عبر بواسطتها أن الشعرية عابرة إلى القارات خارقة مجاهل الذات والآخر، مؤكدا أن الشاعر بؤرة شوق، مهنته أن يصنع من الكلمة قاربا وبواسطة هذا القارب يشق البحر إلى منتهاه، لأن الشعر لم يكن يوما مقيما وإنما ولد وولادة مسافرة، لهذا فالشعر مدين للذين يعبدون الوعر له فيمشي في خطى خفيفة ليعانقنا. وفي كلمة الشاعر الإسباني لويس مونيوث رأى أن خير مسكن للشاعر هو الحدود، حدود اللغة، والأساليب، والصور، والحياة... حدود ذاته نحو الآخر، وعبر هذه الحدود يعمق معرفته بذاته وبالآخرين، وتجربته الشعرية مدينة للذين قرأ لهم بواسطة الترجمة وبلغات مغايرة غير لغته الإسبانية، أما البرتغالي فرناندو بينطو أمرال فقد رأى أن حدود الشعرية موضوع شاسع، والشعر لا يريد أن يرفع هذه الحدود وإنما هدفه دوما أن يصل إلى الآخر. لهذا ستبقى الترجمة هي الوسيط الذي يمكن أن يصل بين التجارب الإنسانية.

جانب من الملتقى (القدس العربي)

الشاعرة المغربية ثريا ماجدولين اختارت بدورها الارتفاع عن الواقع، وعبر مدارات الاستعارة ومدارج الانزياح جلست في قلب القصيدة ورفضت أن ينعت شعرها بالكتابة النسائية لأن الروح على حد تعبيرها ليس لها جنسية أو انتماء سوى الحرية، والكتابة عندها هي غلق للحفر الممتدة حولها، وفي نسيجها لا وجود للحدود، مؤكدة أن الشعر لا حدود ولا هوية له، لهذا سيظل مسافرا يعانق كل من بداخلة نزوة عبور.

عبر الشعراء عن رؤى مغايرة فيما يخص الحدود، وتكاد تجتمع كلماتهم حول ضرورة هدم الحدود وبناء شعرية إنسانية موحدة تلغي الأعراف والتقاليد وتتجاوز كل ما يمكنه أن يعيق رؤيتنا... شعرية تنتصر لجوهر الإنسان في كينونته.

في المساء تجرد الشعراء من تصوراتهم النظرية وسافروا إلى حيث يوجد الشعر، وعبر اللغات الثلاث، قرأت الشاعرة البرتغالية ماريا أندرسين قصيدة آتية من التراب، وقرأت ثريا مجدولين قصيدة ثقل الفراشة وظل الغائب، وقرأ جوردي فيراوينغا قصائد عبارة عن شذريات «عن المجد، خمول، الموت، ساعة البؤس»، وقرأ الشاعر أحمد هاشم الريسوني قصيدته «الطريق» التي أعلن فيها بيان الكتابة وترجم خروجه عن الحدود، وقرأ قصيدة تحت سقيفة طنجة التي احتفى فيها بالمكان في علاقة بالوجود والأنثى والموت، أما الشاعر المغربي عبد الكريم الطبال فقرأ قصيدته بعنوان «القصيدة الأخيرة»، وهي ليست الأخيرة بقدر ما هي بداية لنصوص مسافرة داخله تأبى أن تخرج إلا حينما يصل إلى نهاية البحر.

أدار هذه الجلسة الشعرية الشاعر والباحث محمد المسعودي الذي نسق بين الشعراء والمترجمين، وقال اليوم يتحقق الشعر بلغاته الثلاث.

القصيدة تولد مسافرة:

حينما تولد القصيدة تتمرد، وحينما تتمرد، تلغي الحدود والحواجز. وفي اليوم الأخير من أشغال الملتقى عبر الشعراء عن تمردهم، وهذا ما قالته الشاعرة البرتغالية ماريا أندرسين «جميع المسافات القائمة بين الحدود ينبغي أن تنهار»، آن الأوان أن نهدم كل ما يمكنه أن يعيق عبورنا الشعري، وما يمكنه أن يقوم بذلك هو الترجمة التي بإمكانها أن تعرفنا أنفسنا وتجعل تواصلنا مع الحساسيات الإنسانية شيئا ممكنا. أما الشاعر أحمد هاشم الريسوني فسلم بوجود حدود بين الشعوب، حدود جغرافية، نفسية، تاريخية... لكن القصيدة تخترق جغرافيتها لتلغي الحدود وتعانق الذوات العابرة، فكل لحظة شعرية تحاول أن تنتقل إلى لحظة موالية وأثناء الانتقال تخترق الحدود بين الذات وذوات أخرى، وبين حدود وحدود أخرى. هكذا تصبح شعرية الحدود تسير نحو الممكن رافضة الكائن.

وفي مداخلة الشاعر الإسباني جوردي فيرايونغا رأى أن الشعر مشكلة لسانية، لأن الشاعر يكتب كلمات، وحينما يترجم يفقد صمته وإيقاعه، لهذا ينبغي التفكير في مترجمين شعراء وتكوينهم كي نتخطى هذه الاستعارة..الجلسة النقدية قام بإدارتها الباحث المغربي عز الدين الشنتوف. في مساء الشعر الختامي، جسد الشعراء من جديد تمردهم على المألوف، حيث قدم الشاعر والمترجم مزوار الإدريسي الشعراء، وعبر نصوص قصيرة عابرة، ترجمها الشعراء من لغاتها الأصلية إلى العربية والإسبانية والبرتغالية، قرأ فرناندو بينطو أمرال «سر، عتمة، وردة، روح العصر»، وقرأت كونشا غارثيا «حين يحل الليل، إحساس، قبالة المقهى، بيت بلا نافذة، حلم المطرّزة»، وقرأ لويس مونيوث «الثامنة صباحا، سنوات الستينات، منحوتة ماثلة، حقل الفلين، اللون الأبيض، عائلة، ترك القصيدة»، وقرأ محمد الأشعري «مفردة حرة، حلول، نظرية بلاغية، يقظة مضطربة».

ليختم اللقاء بكلمة للشاعر والمترجم المغربي المهدي أخريف الذي عبر عن كبير الاعتزاز بالحضور البهي للشعراء، وشكر الداعمين وعلى رأسهم مؤسسة منتدى أصيلة، ومنح العضوية الفخرية للشعراء المشاركين في الملتقى، ودعا أعضاءها للتفكير في المشاريع المقبلة من أجل تطوير التجربة ودفعها إلى الأمام.

وبهذه القراءات انتهت كلمة الشعراء، لكن القصيدة لم تنته، ظلت تنحت في متلقيها الدهشة والسؤال، وتسافر إلى حيث يوجد متسع للحلم والحب، حيث لا حدود أو قوانين..

تداعيات

نصوص من بلاد الرقص والثلج

زياد خداش *

1

هو الفعل التالي لفكرة وجود الانسان، هو السلام، هو الرضا، لا يرقص انسان الا ويتخلى عن قوميته لصالح الكون، وعن عائلته لصالح الطبيعة، وعن دينه لصالح الله الكبير. وعن مهنته لصالح جسده. الرقص هو عيش المشاعر الكثيفة التي ترتفع عن كل ما يفرق البشر، الرقص هو وحدة العالم، طفولته، سلامة قلبه، حقيقته، لو كلف شخص متدين بقتل شخص متدين آخر، لأسباب طائفية مثلا، فان المشهد الوحيد الذي سيمنعه او سيجعله مترددا ومرتابا ومرتبكا لارتكاب الجريمة هو مصادفته للضحية وهو يصلي، كذلك الانسان العادي لا يستطيع ان يقتل شخصا يرقص، سيلغي الفكرة او يؤجلها ريثما ينهي الضحية الرقصة، وقد يقول لجثته سامحيني.

في الحروب الشرسة، اتخيل جنودا متعبين ينصتون الى صخب راحل في صالة رقص مهجورة في بلاد اعدائهم، يتجولون الآن في انحائها: مقاعد خشبية محطمة، وستائر ممزقة، ومدلاة ومنصة مسرح راقص مائلة، ها هم ينصتون ويصغون الى اجسادهم وهي تتلمظ الرقص، كما تتلمظ الافواه روائح طعام بعيد، قريب، (ياه كم نحتاج الى رقصة طويلة مع جنود العدو، بالتأكيد ستتحرر قلوبنا من الحقد، وستختفي مسببات الحرب فورا)، هذا ما يقوله جندي احتياط هو عضو في فرقة رقص لنفسه، بينما يستعد لهجوم جديد، منطلقا من صالة الرقص باتجاه مكان آخر.

من هو الشخص الميت؟ يقال إنه الذي لا يتنفس، او الذي لا صوت له، او الذي لا يبتسم، او الذي لا يقدر على الدفاع عن نفسه، كل ذلك صحيح، لكني احس ان الميت هو الذي لا يستطيع ان يرقص، باعتبار ان الرقص هو ابرع واكثف واصدق تجسيد لفكرة الحياة.

2

تنحدرين في السرير، الذي بلا أطفال بلا زوج، السرير الذي بلا منحدرات، تسافرين في الوسادة، الوسادة التي بلا طرق بلا مدارس، تلهثين في الحلم، الحلم الذي بلا أرض بلا أساتذة، بجانبك أسترخي أنا أسفل القتلى المتساقطين من عشب عينيك، وعنوان النوافذ الوهمية المرسومة رسما على الجدران، من أنت ايتها السيدة النائمة بيقظة واسعة؟ومن أنا ايها السيد المستيقظ بنعاس شديد؟ الصمت سيد الليلة، الليلة سيدة الصمت، بياضك لغزي ومطاري وعيون كلبي (هنري) وفطوري الصباحي المنتظم. والله بعيد او قريب، فلسطين تطعن قلبها وأصدقائي الموتى يتكاثرون، أنت حزينة وتائهة ومغتربة في بلادك الصغيرة التي من برتقال وثلج واحتلال، وانا وحيد وأظن اني احبك. يرتبك شتاء كتفك يهرب المطر الساخن مفضلا التساقط القوي والسريع الى اعلى، تنمو حوله فجأة اعشاب سمراء سلسة ومثقفة، تنهض مكتبة عامة، يختنق روادها من التدافع على ابواب المعرفة الكبرى، ينتحر صيف يدي، فيهرع نحوي الربيع النائم المذعور. تميلين بطفولة لا توصف على رمش عيني المكسور، تعيدين له استقامته اللدنة وذاكرته المخطوفة بنفسك الازرق وابتسامتك المتغطرسة. يا بلاد البرتقال والاحتلال، يا بلادها:

خذيني اليك، اقبليني جنديا محتلا في اطرافك او فرعا يابسا في احدى شجرات برتقالك او سقطة بطيئة من سقطات ثلوجك.

3

أصحو من متاهتي المتعة في الغرفة المليئة بالنساء والغناء والموسيقى على يد امي وهي تسحبني الى خارج دائرة الطراوة الهادرة، موبخة اياي على وقاحتي، هل الرقص هو مجرد اطلالة رأس الوحش الذي فينا؟.

نحن نرقص لاننا نشتاق الى ماضينا المتوحش، نتوق الى ادغال كنا فيها ذات عاصفة اسيادا واحرارا وآلهة احيانا، لماذا اخاف من الرقص؟ ألأني اخاف مما بداخلي من رغبة مجنونة في خطف العالم وأسره في زجاجة ثم تحطيم الزجاجة على صخرة في لحظة خيانة مشروعة؟ اطلالات الوحش فينا تختار اكثر من طريقة: منها مثلا الغناء، الرسم، الكتابة، الحلم، والرقص اخيرا.. لكن اخطرها الرقص لانها المفضلة لروح الوحش، فهي تمثل لديه نقطة ضعف الانسان او كعب اخيل فيه. لا اعتقد ان الانسان يذرف في رقصاته كل كنوزه ومطره وحدائقه، فلو فعلها لارتكب جريمة بحق اقرب شخص يتواجد بجانبه، لان مقدار الكشف والاستنارة سيفوق طاقة الانسان على التحمل لذلك فهو يهدّئ باتقان ووفاء من روع جسمه ويخفف من بريق جماله اثناء الرقص لئلا يصل الى مستوى الانفلات الكامل، فيخرج الوحش من نومته الخادعة، ويطيح بالمقاعد والحضور والحراس والراقصين الآخرين، كذلك نحن في مخاض الكتابة نحس ان ثمة كائنا مرعبا يتفلت من مساماتنا، ليخرج، فنردعه بفزع بالانتباه الى كأس الشاي الممدود ناحيتنا من نادل ما، او الى زامور سيارة مارة، او الى شاب وشابة يتبادلان الرعشات والدهشة في ركن قصي من اركان المقهى، هكذا هي المدنية بكل ابتكاراتها الخبيثة من شرائع وقوانين واديان ومؤسسات، تحرص دائما على لجم اطلالات وحوشنا، فنعيش مدجنين ومطيعين، وسعداء جدا، وخائنين بامتياز لروحنا وسرنا وجذورنا.

في المطر القادم سأرقص اي سأحيا، سأتوقف عن الموت، وافلت للوحش لجامه، هكذا اقول لنفسي كل عام، ويأتي الشتاء القادم، ولا افي بوعدي، بل اقف حائرا مرعوبا ذلك الرعب الفاتن وانا اراقب اصدقائي وصديقاتي يهطلون في حفلات ليالي رأس السنة امامي قطعا من اسماكهم ونجومهم واكواخهم.

في الثلج احبك قل، افتعل معك الحروب الصغيرة، كأن اسألك بتوتر عن نظرتك المتواصلة لشباك طلاب الجامعة المجاورين، لا شيء يساوي متعة ان اطردك خارج بيتي واراقبك من النافذة بندم خفيف وانت تضيئين بمعطفك وبنطالك الاسودين ليل الغضب الانيق في لحم الارض الابيض.

5

في الثلج تموت المهن جميعا باستثناء مهنة واحدة هي الصمت.

6

حين ترى امرأة ترقص وحدها تحت الثلج ليلا اشرع فورا بالشك في ضرورة الفنون.

7

نعرف ان هذا الرجل مطرود من ضحكة امرأة حين نعثر على جثته ميتا فوق الثلج، وحين نواصل دربه بحثا عما يدلنا على هويته سنعثر على بيت الضحكة.

8

حين يجلس ليلا النبيذ الاحمر مع الثلج في حضن امرأة فابحث عن الرجل في لاوعي صيف.

9

أن تقبل امرأة في ليلة ثلج دافئة لا يعني حبها بالضرورة او البحث عن متعة ما، قد يعني الضعف امام رأي عام الاحاسيس.

---

* كاتب من فلسطين
zkhadash@tahoo.com